

قصص من السيرة

(١)

النسب النبوي

بقلم

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشثيان

مكتبة العبيكان

③ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

النسب النبوي . - الرياض .

٣٢ ص، ١٧×٢٢ سم. (سلسلة قصص من السيرة؛ ١)

ردمك: ٢-٨٣-٤٠-٩٩٦٠

١- السيرة النبوية أ- العنوان ب- السلسلة

٢٢ / ٣٩٦٨

ديوي ۲۳۹

ردمك: ٢-٨٣-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٩٦٨ / ٢٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م

حقوق الطباعة محفوظة للناس

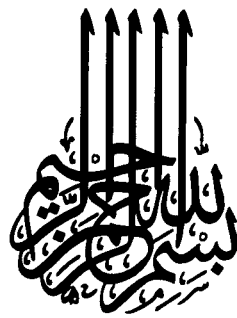
الفاشر

مكتبة العبيد

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فهذه مجموعة قصصية مختارة جاءت بعد قراءة متأنية لسيرة المصطفى ﷺ العطرة في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وفي بعض الكتب الأخرى القديمة والحديثة .

وكان جُهدي جمع الموضوع الواحد وربط أحداثه بعضها ببعض ، ومن ثم إعادة صياغته وإخراجه في قصة مستقلة بذاتها .

أسأل الله أن يرزقنا شفاعة المصطفى ﷺ في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم .

عبدالعزیز

الرياض ٢٨ / ١٠ / ١٤٢٢ هـ

١٢ / ١ / ٢٠٠٢ م

قال ﷺ : « ما ولدني بغي قط منذ كنت في صلب آدم ، فلم تزل تنازعني الأم كابرأ عن كابر ، حتى خرجت من أفضل حين من العرب هاشم وزهرة »^(١) .

وقال ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »^(٢) .

وصدق المصطفى ﷺ ، فقد ولد في أفضل الأحياء ، ونشأ في أكرم البقاع ؛ ومن هنا كان لزاماً على من يتصفح سيرة هذا النبي الكريم أن يعرف سيرة آبائه الكرام ، وأجداده العظام ، وكيف سادوا قومهم ؟ وما هي مكانتهم عند العرب ؟

سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفاته ﷺ وقال له : كيف نسبه فيكم ؟

قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

(١) ابن عساكر - عن أبي هريرة .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ٢٦ / ١ .

قال هرقل : كذلك الرُّسل تُبعث في أنساب قومها . يعني في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة^(١) .

لقد كان بيت النبوة من أعز البيوت العربية وأعلاها شرفاً ، وأسماءها قدراً ، وأجلها مكانة ، وأبرزها جاهاً .

فهو المصطفى ﷺ القرشي محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب (شيبة) ابن هاشم (عمرو) بن عبدمناف (المغيرة) بن قصي بن زيد ، بن كلاب ابن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خُزَيْمة بن مُدْرِكَة (عامر) بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وسُميت قريش قريشاً من التقريش ، وهي التجارة والاكتساب ، وقيل : إنما سميت بذلك لتجمعها من بعد تفرقها ، ويُقال للتجمع : التقريش .

وسأتناول أجداد الرسول الكريم ﷺ الأَدْنَيْن وأعرض لشيء من سيرتهم التي تصور مكانتهم في قومهم .

(١) البداية والنهاية ، ٣ / ٣٥٩ .

فبعد المطلب جد الرسول الأول اسمه شيبه، وعاش مائة وأربعين سنة، واشتهر وعرف بعبد المطلب؛ لأن أباه هاشماً كان قد شخّص في تجارة له إلى الشام، فسلّك طريق المدينة المنورة، فلما قدم المدينة نزل فيها، فرأى سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار، فأعجبه فخطبها إلى أبيها عمرو، فزوجه إياها، وشرط عليه أبوها أن لا تلد ولداً إلا في أهلها، وارتحلت معه إلى مكة، فلما أثقلت ردها إلى أهلها، ومضى إلى الشام فمات بغزة.

وولدت سلمى غلاماً سمته شيبه، قيل: سمته شيبه تفاقواً، وقيل: لأنه ولد وفي رأسه شيبه، ومكث الطفل ييثر سبع سنين أو ثمان، حتى مرّ رجل من بني الحارث ييثر، فرأى غلاماً يلعبون بالسهم، وكان من بينهم واحد كلما أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيّد البطحاء.

فقال له الحارثي: من أنت؟

قال: أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف.

فلما أتى الحارثي مكة قال للمطلب بن عبد مناف وهو جالس في الحجر: يا أبا الحارث، إني مررت ييثر فوجدت غلاماً يلعبون

بالسهم، وفيهم غلام إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء.

فقال المطلب: والله لا أرجع إلى أهلي حتى آتي به.

فقال له الحارثي: هذه ناقتي بالفناء فاركبها.

ومن فوره امتطأها المطلب، وورد يشرب عشاءً، حتى أتى بني عدي بن النجار، فإذا غلمان يضربون كرة بين ظهري مجلس، فعرف ابن أخيه، فقال للقوم: أهذا ابن هاشم؟

قالوا: نعم، هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم أمه، فإنها إن علمت لم تدعه، وحلنا بينك وبينه.

فدعاه المطلب وقال له: يا ابن أخي أنا عمك المطلب، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، وأناخ راحلته، فأسرع الغلام إليه، وما كذب أن جلس على عجز الناقة، فانطلق به ولم تعلم به أمه حتى كان الليل، فقامت تدعوه، وانطلقت تسأل عن ابنها، فقيل لها: إن عمه ذهب به إلى مكة.

وقدم المطلبُ به مكة وهو مردفه على بعيه فقالت قريشُ:
عبدالمطلب ابتاعه، وبذلك سمي شيبهً عبدالمطلب، ولكن المطلب
قال: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم قدمتُ به من المدينة^(١).

وقيل: إن المطلب لما ورد المدينة وأراد الغلام على الراحلة، قال
الغلام: ذلك إلى الوالدة، فلم يزل بها حتى أذنت له.

وقال عبدالمطلب:

عرفتُ شيبهَ والنَّجَارُ قد جعلتُ أبناءَها حوله بالنَّبلِ تنتَضِلُ
وأكرم المطلبُ ابنَ أخيه شيبه الذي سُمي فيما بعد بعبدالمطلب.

وأوقفه المطلب على مُلك أبيه هاشم، وسلمه إليه.

وكان المطلب قد ورث السقاية والرفادة من بعد أخيه هاشم، وكان
ذا شرف في قومه وفضل في عشيرته، وكانت قريش تُسميه الفيض
لسماحته وفضله.

وتوفي المطلب بردمان من أرض اليمن، وتبارى الشعراء في رثائه،
يقول أحدهم:

(١) الروض الأنف، ٢٥١/١.

يا عين جودي وأذر الدَّمْعَ وأنهمري وابكي على السرِّ من كعبِ المَغِيراتِ^(١)
صعبِ البديهةِ لا نِكْسٍ ولا وِكلٍ ماضي العزيمةِ متلافِ الكَرِيماتِ^(٢)
صقِرِ تَوسَطَ من كعبٍ إذا نُسِبا بِحُبُوحَةِ المجدِ والشَّمِّ الرَفِيعاتِ^(٣)
ثم اندبى الفيضَ والفياضَ مُطلباً واستخرطى بعدَ فيضاتٍ بِجَمَّاتِ^(٤)
وغلب اسم عبدالمطلب على اسم شيبة وصار يعرف بعبدالمطلب ،
وعاش كريماً بين قومه .

ومضت الأيام ونما الطفل وأفع الفتى ، ثم صارت له مشكلة مع
عمه نوفل ، فقد غلبه عمُّه على بعض أملاكه التي ورثها له أبوه هاشم ،
ومشى عبدالمطلب إلى رجالات قريش فسألهم النصرة على عمه
نوفل ، فقالوا : لسنا بداخلين بينك وبين عمك .

فلما رأى عبدالمطلب ذلك كتب إلى أخواله في المدينة يصف لهم
حال عمِّه نوفل ويشكوه إليهم ، ويطلبُ منهم النصرة عليه وقال في

(١) السر : الخالص النسب .

(٢) النكس : الدنيء من الرجال . والوكل : الضعيف الذي يتوكل على غيره .

(٣) البجوحه : وسط الشيء . والشَّمُّ : العالية .

(٤) استخرطى : استكثري . والجمات : المُجتمع من الماء . استعاره هنا للدموع .

أبيات له^(١):

يا طول ليلي لأحزاني وأشغالي
يُنبي عدياً وديناراً ومازنها
قد كُنتُ فيكم ولا أخشى ظلامه ذي
حتى ارتحلتُ إلى قومي وأزعجني
وكُنتُ ما كان حياً ناعماً جذلاً
فغابَ مُطَلِّبٌ في قعر مُظلمةٍ
أأن رأى رجلاً غابتْ عُمومتهُ
أنحى عليه ولم يحفظ له رَحِماً
فاستنفروا وامنعوا ضيم ابنِ أختكم
ما مثلكم في بني قحطان قاطبةً
أنتم لِيانٍ لِمَنْ لانتْ عريكتُهُ

هل من رسولٍ إلى النجار أخوالي
ومالكاً عصمةَ الجيرانِ عن حالي
ظلمَ عزيزاً منيعاً ناعماً البالِ
عن ذاك مُطَلِّبٍ عَمِّي بترحالي
أمشي العِرْضَةَ سَحاباً لأذيالي
وقام نوفلٌ كي يعدو على مالي
وغَابَ أخوالُهُ عنه بلا والٍ؟
ما أَمْنَعَ المرءَ بينَ العمِّ والخالِ
لا تخذلوه وما أنتم بخُدَّالِ
حيٌّ لجارٍ وإنعامٍ وإفضالِ
سَلِّمُ لَكُمْ وَسِمَامُ الأَبْلَخِ الغالي^(٢)

(١) تاريخ الطبري، ٢/ ٢٥٠ .

(٢) الأبلخ، المتكبر .

وأُسرع إليه خاله من المدينة أبو أسعد بن عدي النجاري في ثمانين ركباً حتى أتى الأبطح ، وبلغ عبدالمطلب قدومهم فخرج يتلقاهم فقال : المنزل يا خال !

فقال أسعد : أمّا حتى ألقى نوفلاً فلا .

قال عبدالمطلب : تركته جالساً في الحجر في مشايخ قريش ، فأقبل أسعد حتى وقف على رأس نوفل ، ثم استل سيفه ، وقال : ورب هذه البنية - يقصد الكعبة المشرفة - لتردن على ابن أختنا حقه أو لأملأن منك السيف .

قال نوفل : فإني ورب هذه البنية أردُّ حقه .

فأشهد عليه أسعد من حضر ، ثم قال : المنزل يا ابن أختي ، وأقام عنده ثلاثاً واعتمر .

وتولى عبدالمطلب بن هاشم بعد عمّه المطلب السقاية والرفادة ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون ، وما كانوا يبذلونه ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم ، وصار له شأن ، وازداد أمره حين كشف عن بئر زمزم مع ابنه الحارث .

يقول عبدالمطلب : إني لنائم في الحجر ، إذ أتاني آتٍ فقال : احفر طيبة^(١) قال : قلت : وما طيبة؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر برة^(٢) ، قال : وما برة؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المذنونة^(٣) قال : فقلت : وما المذنونة؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر زمزم ، قال : قلت : وما زمزم؟ قال : لا تنزف^(٤) أبداً ولا تؤذم^(٥) ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نُقْرة الغراب الأعصم^(٦) ، عند قرية النمل .

(١) قيل لزمن طيبة ، لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم .

(٢) قيل لها برة ، لأنها فاضت على الأبرار وفاضت عن الفجار .

(٣) قيل لها مذنونة ، لأنها ضن بها على غير المؤمنين فلا يتضلع منها منافق .

(٤) لا تنزف : لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها .

(٥) لا تؤذم : أي لا توجد قليلة الماء ؛ تقول : أذمت البئر : إذا وجدتها قليلة الماء .

(٦) الأعصم : الذي في جناحيه بياض ؛ وقيل غير ذلك .

قال ابن إسحاق : فلما بُيِّنَ له شأنها ، ودُلَّ على موضعها ، وعَرَفَ أنه قد صُدِّق ؛ غدا بمَعولِه ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب ، ليسَ له يومئذٍ ولدٌ غيرُه ، فحفر فيها ، فلما بدا لعبدالمطلب الطي^(١) كَبَّرَ ، فعرفت قُرَيْشٌ أنه قد أدرك حاجتهُ .

فقاموا إليه فقالوا : يا عبدالمطلب ؛ إنها بُرُّ أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خُصِّصْتُ به دونكم ، وأعطيته من بينكم .

فقالوا له : فأَنصِفنا فإنَّا غيرُ تاركيك حتى نُخاصمك فيها .

قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

قالوا : كاهنة بني سعد هُذَيم ، قال : نعم .

قال : وكانت بأشراف^(٢) الشام ، فركب عبدالمطلب ومعه نفر من

بني أبيه من بني عبدمناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ ، قال : والأرضُ إذ ذاك مفاوِزُ .

(١) الطي : الحجارة التي طوى بها البئر .

(٢) أشرف الشام : ما ارتفع من أرضه .

قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فني ماءً عبدالمطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم ، وقالوا : إننا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟

قالوا : ما رأيُّنا إلا تبعٌ لرأيك ، فمرُّنا بما شئت .

قال : فإنني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرة ، ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعةٌ رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً .

قالوا : نعم ما أمرت به .

فقام كل واحدٍ منهم فحفر حفرة ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً .

ثم إن عبدالمطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ،
لا نضربُ في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجزاً ، فعسى الله أن يرزقنا
ماءً ببعض البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم
ما هم فاعلون تقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به
انفجرت من تحت خُفها عينٌ من ماء عذب ، فكبر عبدالمطلب ، وكبر
أصحابه ، ثم نزل فشربَ وشربَ أصحابه ، واستقوا حتى ملؤوا
أسقيتهم .

ثم دعا القبائل من قريش : فقال : هلمَّ إلى الماء فقد سقانا الله ،
فاشربوا واستقوا ، فجاؤوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قُضي
لك علينا يا عبدالمطلب ، والله لا نُخاصمك في زمزم أبداً ، إن الذي
سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك
راشداً .

فرجعَ ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبينها .

وكان عبدالمطلب حين همّ بحفر زمزم وجد مقاومة من قريش ،
ولم يكن له من الولد آنذاك سوى الحارث ، وكان الحفر بين وثنى
قريش إساف ونائلة ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها .

ولما قام عبدالمطلب ليحفر ورأت قريش منه الجدد ، قاموا إليه وقالوا
له : لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبدالمطلب لابنه الحارث : دُدْ عني حتى أحفر ، فوالله لأمضين
لما أمرتُ به .

ولما عرفت قريش أنه جاد ، وغير تارك الحفر ، خلوا بينه وما أراد
وكفوا عنه وتركوه يحفر ، فلم يلبث عبدالمطلب إلا اليسير ، حتى بدا له
الطيّ فكبّر ، وعرف أنه قد صدّق .

ونذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم
لله عند الكعبة .

ومضت الأيام ، وازداد شأنه وعلا أمره ، ونمت أسرته ورزقه الله من
الولد عشرة نفر ، ومن البنات ست ، وعند ذلك جمع أبناءه وأخبرهم
بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه ، وقال بنوه : كيف
نصنع ؟

قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هُبَلٍ في جوف الكعبة ، وكان هُبَلٌ على بئر في جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يُهدى للكعبة .

وقال عبدالمطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذر .

فأعطاه كل رجل منهم قدحَه الذي فيه اسمه ، وكان عبدالله أحب ولد عبدالمطلب إليه ، وهو أبو رسول الله ﷺ .

فلما أخذ صاحبُ القداحِ القداحَ ليضرب بها ، قام عبدالمطلب عند هُبَلٍ يدعو الله ، ثم ضربَ صاحبُ القداحِ فخرج القدحُ على عبدالله ، فأخذه عبدالمطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريشٌ من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبدالمطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذرَ فيه ، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

وقال له المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة، وكان عبدالله ابن أخت القوم: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذرَ فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل، وأنطلقَ به إلى الحجاز، فإن به عرافةً فسألها، ثم أنت على رأس أمرك: إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمرٍ لك وله فيه فرجٌ قبلته.

فانطلقوا إلى العرافة فسألوها، وقصَّ عليها عبدالمطلب خبره وخبر ابنه، وما أرادَ به، ونذره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قام عبدالمطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرٌ من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشرًا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضي ربكم، ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبدالمطلب يدعو الله، ثم قربوا عبدالله وعشرًا من الإبل، وعبدالمطلب قائمٌ عند هبل يدعو الله عزَّ وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على

عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل عشرين، وقام عبدالمطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ثلاثين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل أربعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل خمسين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ستين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل سبعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ثمانين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل تسعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل مائة، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدحُ على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا

عبدالمطلب، فزعموا أن عبدالمطلب قال: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبدالله وعلى الإبل، وقام عبدالمطلب يدعو الله، فخرج القدحُ على الإبل؛ ثم عادوا الثانية، وعبدالمطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القدحُ على الإبل؛ ثم عادوا الثالثة وعبدالمطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القدحُ على الإبل؛ فنحرت، ثم تركت لا يُصدُّ عنها إنسان ولا يمنع.

ونجا والد رسول الله ﷺ عبدالله من الذبح، وتزوج السيدة آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة، وكان والدها سيّد بني زهرة نسباً وشرافاً. وكانت آمنة أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، وتوفي عبدالله والرسول ﷺ في بطن أمه، وبعد ولادة رسول الله ﷺ تولاه جده عبدالمطلب، حتى بلغ -عليه الصلاة والسلام- ثمان سنين، وعندها توفي عبدالمطلب، وكان قد عهد برعاية رسول الله ﷺ إلى عمه أبي طالب؛ لأن أبا طالب وعبدالله والد الرسول أخوان لأب وأم، فأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية.

وتبارى الشعراء في رثاء عبدالمطلب وذكر محاسنه. يقول أحدهم:

أعيني جوداً بالدموع على الصدر ولا تسأماً أسقيتُما سبل القطر^(١)

على شيبة الحمد الذي كان وجهه يُضيء سواد الليل كالقمر البدر

طوى زمزماً عند المقام فأصبحت سقايته فخراً على كل ذي فخر

ولما توفي عبدالمطلب وكيّ زمزم والسقاية عليها من بعده العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ أصغر إخوته سنّاً، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهي بيده، فأقرها رسول الله ﷺ على ما مضى من ولايته.

هذا هو جد رسول الله ﷺ الأول.

أما جده الثاني، هاشم بن عبدمناف، فكان يقال: إن اسمه عمرو؛ وإنما سمي بهاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمهم إياه؛ وذلك أنه أصابت قريش سنة قحط، فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق، وقدم به مكة، وأمر به فخبز له، ونحر جزوراً، ثم اتخذ لقومه مَرَقَةً ثريداً بذلك الخبز.

ويُروى أن هاشماً هو أول من سنّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

(١) السبل: المطر.

يقول الشاعر ابن الزُّبَيْرِي :

عمرو الذي هَشَمَ الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسْتَتُونَ عِجَافٌ^(١)

وهو الذي سَنَّ الرحيل لقومه رَحَلَ الشَّتَاءَ وَرَحَلَةَ الْأَصْيَافِ

وكان هاشمٌ قد وُلِّي بعد أبيه عبدمناف السقاية والرفادة، وكان موسراً، وكان إذا حضر الحجاج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زُورََّ الله وحُجاج بيته، وهم ضيوف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فاجتمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً، أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالي يسع ذلك ما كلفتكموه .

ويستجيب أهل مكة لندائه، ويسهم رجال قريش كلُّ بقدر ما عنده، ويصنع للحجاج طعاماً، حتى يصدروا من مكة .

والجد الثالث لرسول الله هو عبدمناف الذي يسمى بالقمر لجماله وحسنه ، واسم أمه حُبَى بنت حُلَيْل من خزاعة .

(١) المستتون : الذين أصابتهم السنة الجذبة الشديدة .

وقيل : إن سبب تسميته بعبدمناف أن أمه دفعته إلى أعظم صنم في مكة (مناف)^(١) تدينًا منها بذلك ، فغلب عليه اسمُ عبدمناف ، وإلا فإن اسمه المغيرة بن قصي .

هذا وقد شرف عبدمناف في زمان أبيه قصي ، وذهب كل مذهب ، حتى إن والده قصياً لما كبر ورقَّ عظمه ، ورأى هذه المكانة لعبدمناف وهذا الجاه ، قال لابنه البكر عبدالدار : أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقدُ لقريش لواءً لحرب بها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك ؛ فأعطاه دار الندوة التي لا تقضي قريشُ أمراً من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

وبهذا جعل قصي كل ما بيده من أمر قومه إلى ابنه عبدالدار ، وكان قصي لا يخالف ولا يردُّ عليه شيء صنع .

(١) مناف : صنم بمكة . الطبري ، ٢٥٤ / ٢ .

أما منات : فهي للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب . الروض الأنف ، ١ / ١٧٣ .

إلا أنه بعد وفاة قُصي وتفرق الأبناء رأى بنو عبدمناف بن قصي وهم عبدشمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل، أن يأخذوا ما بأيدي بني عبدالدار بن قصي، مما كان قصي قد جعله لعبدالدار من الحجابة، واللواء والسقاية، والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك.

وتفرقت قريش، فكانت طائفة مع بني عبدمناف، وطائفة مع بني عبدالدار، وتطور الخلاف، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، لولا صوت عاقل دعا إلى الصلح، وأن تكون لبني عبدمناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار، فقبل الفريقان وتراضوا، وتحاجز القوم عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة».

ويريد رسول الله ﷺ بذلك الاتفاق على الخير ونصرة الحق.

أما الجد الرابع فهو قصي بن كلاب بن مرة واسمه زيد ولكن غلب عليه اسم قصي، وذلك أن والده كلاباً تزوج أم قصي فاطمة بنت سعد بن سيل من أزد شنوءة فأنجبت له ولدين، سماهما زهرة وزيد،

ثم توفي كلاب ، وتزوجت من بعده بريعة بن حرام من بني عذرة بن قضاة ، وارتحلت معه بابنها زيد إلى دياره بقضاة بأشراف الشام وزيد صغير في مرحلة الفطام ، وأنجبت من زوجها الثاني أخاه لأمه رزاح بن بريعة ، وكان لبريعة امرأة أخرى أنجبت له ثلاثة أبناء .

وشب زيد في حجر زوج أمه بريعة ، وسُمي قصياً لبعده ديار آبائه عن الشام .

وبينما زيد بن كلاب بأرض قضاة لا ينتمي إلا إلى بريعة بن حرام ، صار بينه وبين رجل من قضاة خلاف .

فأنَّبه القضاعي بالغبرة وقال له : ألا تلحق بقومك ونسبك ، فإنك لست منا ، فرجع قُصيُّ إلى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي ، فسألها عما قال له ذلك الرجل ، فقالت له : أنت والله يا بني أكرم منه نفساً ووالداً ، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله .

فقرر قُصيُّ الخروج إلى قومه واللاحق بهم ، وكره الغربة بأرض قضاة .

فقلت له أمه : يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإني أخشى عليك أن يُصيبك بعض البأس .

وانتظر قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام ، وخرج حاج قضاة ، خرج معهم حتى قدم مكة ، ولما فرغ قصي من الحج ، أقام بمكة وكان رجلاً جلدًا ألمعياً طموحاً ، وكان أمر البيت وإمارة مكة بعد جرهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم -عليه السلام- لبني بكر وخزاعة ، ثم انفردت خزاعة بالأمر وصار الشأن لهم يتوارثونه كابراً عن كابر .

وكانت قريش جماعات متقطعة ، وبيوت متفرقة في قومهم من بني كنانة .

ثم إن قصي بن كلاب بعد أن استقر به المقام بمكة ، خطب إلى حُليل بن حبشية بن سلول بن كعب الخزاعي آخر من ولي البيت من خزاعة ، فزوجه ابنته حبى بعد أن عرف حُليل نسبه ومكانته .

ومضت الأيام وتوفي حُليل الخزاعي ، وعلا شأن قصي وعظم أمره ، وانتشر ولده ، وكثر ماله ، ورأى أنه أولى بالكعبة وإمارة مكة

من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً خيار ولد إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام-، وأنهم صريح ولده، وأن الشأن يجب أن يكون لهم.

ولهذا كلم رجالاً من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فقبلوا دعوته وبايعوه على ذلك، واستنجد بقضاعة فكتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومه قضاعة، ودعا أخاه إلى نصرته والقيام معه.

واستجاب الأخ لأخيه فقام رزاح بن ربيعة في قضاعة يدعوهم، ويطلب منهم المدد ونصرة أخيه في مكة، والخروج معه إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم، وقدم رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه، حسن بن ربيعة، ومحمود بن ربيعة، وجلهمة بن ربيعة وجمْع من قضاعة.

وخرج قصي بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة وقاتلوا خزاعة وبني بكر حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح، وإلى أن يحكموا بينهم رجالاً من العرب، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبدمناف بن كنانة، فُقضى

بينهم بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، أي يبطله .

وأن ما أصابت خزاعة وبني بكر من قريش وكنانة وقضاعة، ففيه الديّة مؤداة، وأن يُخلّى بين قصي وبين الكعبة ومكة .

ووكلي قصي البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه، وخرجت خزاعة وبني بكر من مكة .

وكانت إليه الحجابة ؛ وهي أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه .

والسقاية ؛ وهي سقيا زمزم حيث كانوا يصنعون بها شرباً في الموسم للحاج ويمزجونه تارة بالعسل، وتارة باللبن، وتارة بالنبيد، ويفعلون ذلك تطوعاً من عند أنفسهم .

كما صارت إليه الرفادة، وهي طعام كانت قريش تجمعها كل عام لأهل الموسم فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

وكذلك الندوة؛ وهي الاجتماع للمشورة والرأي، وكانت الدار التي اتخذها قصي لذلك يقال لها: دار الندوة.

أما اللواء؛ فهي الراية في الحرب، فلا يعقد لواء الحرب ويأخذها إلا هو.

وبذلك حاز قصي شرف مكة كله، وقَطَعَ مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها.

وسمّت قريش قُصِيّاً مُجَمَّعاً لأنه جمعهم، وتيمّنت بأمره، فما تُنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقده لهم بعض ولده.

وكان أمره في قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره، واتخذ لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

ولما تُوفِّي قُصِي صار الأمر والشأن في مكة لأبنائه من بعده، وقال الشاعر:

قُصِيَّ لِعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقِبَائِلَ مِنْ فَهْر^(١)

هؤلاء أجداد المصطفى ﷺ ورثوا المجد كابرًا عن كابر، وطوقهم
سيد البشر المصطفى ﷺ المجد كله على أهل الأرض كافة، حتى يومنا
هذا.

اللهم ارزقنا اتباعه، واهدنا طريقه المستقيم، واجعلنا من ورّاد
حوضه ﷺ.

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٣٥٩.